بشرا ان هذا الا ملك كريم » ؛ لالا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه : نبيّ صدق الانبياء ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهي الابصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » اهـ

الكرامات والخوارق

تتمة المقالة العاشرة

(المسألة الخامسة والعشرون) ذكر الشيخ الاكبر فى فتوحاته أن الكرامة على قسمين كرامة حسية كالمشي على الماء وكرامة معنوية وهى التوفيق لكمال المحافظة على حدود الشريعة ظاهراً وباطنا وما ينشأ عن ذلك من العلوم والمعارف الالهية . وذكر ان الاكابر لايحفلون بالكرامات الحسية وأن اعظم كرامة عندهم العلم بالله تعالى والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولاي شيء وضعت حتى يكون الانسان من امره على بصيرة من حيث كان فلا يجهل من نفسه ولا من حركاته شيئاً . بل قال : إن الكرامة ليست الا العلم اما المعنوية فظاهر ان العلم مبداها وثمرتها واما الحسية فانه يشترط ان تكون بتعريف الهي وهو عين العلم :

وتقول ان هذه الكرامة المعنوية لاينكرها احد وكلها نفع وليس فيها ضرر ولا خداع فان العلم نور لاظلمة فيه . والولي المحمدي لايليق به التعويل على غير هذه الكرامة فان آية نبيه الكبرى معنوية والكرامة قبس من نور المعجزة كما يقولون

(المسألة السادسة والعشرون) ذكر الشيخ الاكبر فى فتوحاته ايضاً أن الخوارق التى تحصل على ايدي الصالحين قد يكون فيها مكر خفي واستدراج . وشرط لصحة كونها كرامة اكرم الله بها العبد لامكراً به ولا استدراجا له ان

تكون ناتجة عن استقامة أو منتجة لاستقامة وان تكون بتعريف الهي . هذا ما اشترطه شيخ الصوفية الاكبر وهو مخالف لما فى كتب علماء الظاهر من كون الكرامة هي الامر الخارق للعادة الذي يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح . ولو اعتبر بهذا وما قبله الذين يعتدون المصادفات الغريبة كرامات وان ظهرت على أيدي المستورين او الفاسقين لكفوا من غلوائهم .

(المسألة السابعة والعشرون) ان الكرامة فى عرف العامة هي الفصل الذي يميز طائفة من الناس يسمونهم الاولياء . والولي فى اللغة الناصر والمتولي للأمور وقد نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من دونه أولياء وقال « الله ولي الذين آمنوا » وأولياء الله هم أنصار دينه والمميز لهم كمال الاتباع المعبر عنه بالتقوى فكل مؤمن تقي ولي وليس عمل الغرائب ولا صدور الخوارق دليلا على التقوى ولا على الولاية . قال تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون » وفى الباب السادس والثمانين بعد المئة من الفتوحات المكية ان تارك الكرامات هو المتحقق باتخاذ الحق وكيلا له امتثالا لقوله تعالى « فاتخذه وكيلا »

(المسألة الثامنة والعشرون) يستدل العامة على ثبوت وقوع الكرامات للأولياء بقوله تعالى « لهم مايشاؤن عند ربهم » وهي جراءة على تحريف القرآن فاشية فيهم وإنما الآية فى أهل الجنة فى الجنة وقد اختزلوا منها هذه الجملة فكان استدلالهم بها على ان الاولياء يعطيهم الله فى الدنيا مايشاؤن من الخوارق كاستدلال بعض المتلاعبين على تحريم الصلاة بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة » وترك القيد وهو قوله « وأنتم سكارى » . واكثر الذين رأيناهم يستدلون على الكرامة بما ذكر جاهلون بما عدا تلك الكلمة من الآية ولهذا نكتبها لهم بتمامها وهي « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم مايشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير » ثم قال بعدها « ذلك الذى يبشر الله عباده » الخ فانت تراها بشارة للمؤمنين العاملين بما سيكون لهم من الجزاء فى الآخرة فهي كقوله تعالى بعد ذكر الجنة ودخول المتقين فيها « لهم مايشاؤن فيها ولدينا مزيد » فاين ذلك من حديث الخوارق فى الدنيا ؟

(المسألة التاسعة والعشرون) أن الاعتقاد بالكرامة ليس من اصول الايمان التي يكلف المؤمن باعتقادها كما تقدم وإنما ذكروها في كتب الدين لما تقدم من الاستدلال على وقوعها بالكتاب في قصة أم موسى وأم عيسى عليهما السلام . وقد علم من المقالة الرابعة أن قصارى مايدل عليه الكتاب هو الالهام الصحيح للاولى وتمثل الملك الروح للثانية ومكالمتها وذلك من مقدمات نبوة ولديهما كحبل مريم بنفخ الروح فيها . فمثل هذا لايقاس عليه لانه آية لم تأت على قياس لان زمن النبوة قد انقطع فلم يبق الا تحكيم العلم في مسألة الخوارق فما اثبته فهو الثابت وما نفاه فهو المنفي وما توقف فيه فالوقف حتم الى ان يتجلى فيه شيء

(المسألة الثلاثون) لنا ان نجعل الدين معيناً للعلم في البحث عن الخوارق التي تحقق وقوعها وذلك ان الدين علمنا ان وراء العالم المحسوس عالما غيبياً لاتستقل الحواس بادراكه . ومن حكم الدين في الاخبار بهذا توجيه همة الانسان الى شيء أرقى من هذه المحسوسات التي تشاركه فيها البهائم والحشرات حتى لايقف باستعداده غير المحدود عند هذه الحدود القريبة . وإن للعالم الغيبي اتصالا بعالم الشهادة المحسوس ومنه أرواحنا التي بها نحيا وندرك

وهذه المسألة تنفضنا في تعليل كثير من الوقائع التي تسمى خوارق وهي خوارق عادات حقيقة ولكنها ليست خوارق للسنن الالهية فاذا لم تظهر لها سنة حسية جلية : فان لها سنة معنوية خفية . وهذه التعليلات والتأويلات الآتية من قبيل تعليل علماء المادة كثيراً من الظواهر الطبيعية بالأثير الذي يسندون اليه الآثار : وان لم تدركه الابصار : بل هي أظهر منها . وانا نجعل هذه المسألة آخر المسائل التي نجلي بها مبحث الخوارق والكرامات . فعلم من هذا انه ليس في الدين دليل على وقوع الخوارق لغير الأنبياء إلا في وقائع متصلة بهم ومتعلقة بظهورهم وان المعول عليه فيما وراء ذلك هو العلم والاختبار . وسترى أنواع الخوارق في المقالات التالية وحكم العلم والاختبار فيها

* * * * * *

(المقالة الحادية عشرة في أنواع الكرامات وضروب التأويل)

ما رأيت أحداً توسع في الكلام على الكرامات كالتاج السبكي في الطبقات الكبرى ولذلك جعلنا كلامنا في المقالات الاولى معه . وقد تكلم في أنواع الكرامات وقال : ان بعض المتأخرين عدد أنواع الواقعات من الكرامات فجعلها عشرة وهي أكثر من ذلك وأنا أذكر ماعندي فيها : ثم ذكر خمسة وعشرين نوعا لاتخلو من تكرار وتداخل ثم قال : وأظن أن أنواع كراماتهم تبلغ المئة :

وقد زدت عليه في خاتمة كتاب (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والاحمدية) أنواعا مشهورة غفل عنهم . وانا نسرد هذه الانواع المشهورة ونحرر القول فيها . ونشير الى وجوه التأويل التي تعتريها . فنقول :

(النوع الاول احياء الموتى)

ذكر السبكي فيه حكايات في إحياء نحو دابة ودجاجة وحدأة وطفل صغير وقع من سطح فمات ثم قال : لايثبت عندي ان وليا حيي له ميت مات من أزمان كثيرة بعد ماصار عظما رميما ثم عاش بعدما حيي زمانا كثيراً . هذا القدر لم يبلغنا ولا أعتقده وقع لاحد من الاولياء ولاشك في وقوع مثله للانبياء عليهم السلام فمثل هذا يكون معجزة ولاتنتهي اليه الكرامة فيجوز ان يجيء نبي قبل اختتام النبوة باحياء أمم انقضت قبله بدهور ثم اذا عاشوا استمروا في قيد الحياة أزمانا . ولا اعتقد الآن أن ولياً يحيي لنا الشافعي وأبا حنيفة حياة يبقيان معها زمنا طويلا كما عمرا قبل الوفاة ولازمانا قصيراً يخالطان فيه الاحياء كما خالطاهم قبل الوفاة : اه كلامه

أقول اذا كان يعترف بأن الشيخ عبد القادر الجيلي أحيا الدجاجة بعد أكلها مطبوخة فلماذا يستنكر على مثله إحياء الشافعي وأبي حنيفة وبماذا يفرق بين الاحياءين ؟ ان كان الكلام في الجواز وعدمه فهو حكم عقلي لايختلف باختلاف الاشخاص وان كان الكلام في الوقوع فهو يتوقف على المشاهدة أو السماع من المعصوم أو النقل بالتواتر الصحيح عن أحدهما ولا شيء من ذلك بثابت الا ماحكى الله تعالى من قول عيسى عليه السلام « وأحيي الموتى بإذن الله » ولم يقل انه أحيا ميتاً أو

أمواتاً مضى على موتهم الزمن من الطويل حتى صاروا رمما بالية ثم عاشوا بين الناس وحدثوهم بما كان من أمرهم بعد الموت . ولو فعل هذا لما بقي أحد الا وآمن به. ولسنا نريد ان عدم النص والتصريح بانه أحيا الموتى بالفعل يقتضي انه لم يقع منه إحياء حقيقي بالفعل أو ان المراد بالموتى موتى الجهل والكفر وبالاحياء الهداية الى الايمان والحق كما قال المأوّلون وانما نريد أن السبكي لا يجد نصاً يؤيد به دعواه وأنه متحكم وان كان مصيبا في قوله وفاقا للقشيري: ان الكرامة لا تبلغ مبلغ المعجزة: ويظهر ان الميزان الذي يزن به هذه الاحكام هو عظمة الاشخاص أو الاصناف في نفسه فلما كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام أعظم الناس قدراً أعطاهم إحياء العظام الرميم وكون من يحيونه يعيش الزمن الطويل وأعطى الاولياء إذ كانوا دونهم إحياء الطيور والاطفال !!

كان للنصارى غرام بنقل الآيات والخوارق والامر الغريب اذا اشتهر بين الناس لا يبالي وان كان سنده واهيا أو موضوعا ولم ينقل القوم عن المسيح أنه أحيا العظام الرميم بل روى لوقا في آخر الفصل الثامن من إنجيله أن ابنة رئيس المجمع ماتت وأن المسيح قال « لا تبكوا لم تمت لكنها نائمة ٥٣ فضحكوا عليه عارفين أنها ماتت ٥٤ فاخرج الجميع خارجا وأمسك بيدها ونادى قائلا : يا صبية قومي : فرجعت روحها وقامت في الحال » اه وروى يوحنا في الفصل الحادي عشر من انجيله قصة إحياء (لعازر) أخي مريم ومرثا وكان المسيح يحبه ويحبهما وكان مرض فأخبر المسيح تلاميذه بأنه نام وأنه يريد إيقاظه ويعني أنه مات فجاء معهم من أورشليم الى قرية بيت عينا حيث كان لعازر واختاه وكان قد مات ووضع في مغارة منذ أربعة أيام فجاءها وأمر برفع الحجر ورفع هو عينيه الى فوق وقال : ايها الأب اشكرك لأنك سمعت لي وانا علمت انك في كل حين تسمع لي ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا انك ارسلتني : ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجا فخرج الميت الخ

هذا ما ورود وهو على انقطاع اسناده ليس في شيء مما قال السبكي اما حكاية البنت فيحتمل انها كانت في نوم حقيقي كما هو ظاهر قوله . واما الحكاية الثانية فانا معشر المؤمنين نسلم بها اذا صح نقلها بالتواتر وان كان ملاحدة النصارى

قالوا فيها باحتمال المواطأة بين المسيح ولعازر على ما كان (نعوذ بالله من كفرهم) وباحتمال ان يكون ذلك من قبيل النوم الطويل فقد ثبت ان من الناس من ينام عدة اسابع او عدة أشهر ثم يستيقظ بسبب او بدون سبب ، ولولا مانبت في القرآن من نبوة المسيح وتأييد الله تعالى له باحياء الموتى لكان التأويل متعينا فليس عندنا نقل متواتر يعتد به

هذا واننا خرجنا عن الموضوع بادخال المعجزة في البحث . والذي نقوله في هذا النوع من حيث عدّه في الكرامات إنه لم يثبت والأصل عدمه . وان ما اورده السبكي من الحكايات ينطبق على القاعدة التي قررها في طبقاته وهي عدم جواز إظهار الكرامة الا لأمر عظيم يضطر اليها حتى إنه انتحل تطبيق ماورده من الكرامات المأثورة عليها . وكان ينبغي له ان يطبقها على قاعدته الاخرى وهي عدم بلوغ الكرامة مبلغ المعجزة فيقول ان إحياء الموتى لايكون من الكرامات . ولا عبرة بتلك القصص والحكايات.

هذا وان المشعوذين في أوربا وغيرها يخيلون للناس أنهم يذبحون الانسان فيبينون رأسه عن جثته ثم يحيونه . ويطمع العلماء بان يرتقي العلم بالناس الى مستوى يهتدون فيه الى إعادة الحياة لمن تفارقه بعد زمن قريب . ومنهم طائفة من الروحيين تشتغل بالبحث عن طريق مناجاة أرواح الموتى . ولا يبعد إن يجيء يوم يظهر لهم فيه أن ماروي من إحياء سيدنا عيسى للميت ولعازر . وإحياء سيدنا محمد لابن جابر . قد كان بسنة إلهية خفية . وهو إمداد الأرواح القوية العلوية للارواح الضعيفة السفلية . حتى تعود باذن الله الى التصرف بالجسد ، اذا لم يطل على مفارقته الأمد . وقد سبق الالماع الى أن آيات الانبياء عليهم السلام اذا كانت جارية على سنن الهية روحانية يكون ذلك أليق بكمال الله عز وجل مما اذا كانت بمحض القدرة لما فيه من اتفاق القدرة مع النظام والحكمة وذلك كمال في القدرة لانقص فيها

* * * * * *

(النوع الثاني تكليم الموتى ورؤية الارواح)

قال السبتي هو أكثر من النوع الذي قبله وروي مثله عن ابي سعيد الخراز رضي الله تعالى عنه ثم عن الشيخ عبدالقادر رضي الله تعالى عنه وعن جماعة من آخرهم بعض مشايخ الشيخ الامام الوالد ولست اسميه :

ونقلت في كتاب (الحكمة الشرعية) عن الشيخ الاكبر محي الدين بن عربي ماحكاه عن نفسه في الفتوحات المكية (باب ٣١١) وهذا نصه : « ولقد كنت انقطعت في القبور مدة منفرداً بنفسي فبلغني ان شيخنا يوسف بن يخلف الكرمي قال : ان فلانا ـ وسماني ـ ترك مجالسة الاحياء وراح يجالس الموتى : فبعثت اليه وقلت : لو جئتني لرأيت من اجالس : فصلى الضحى واقبل اليّ وحده مامعه احد فطلب علي فوجدني بين القبور قاعدا مطرقا وانا اتكلم على من حضرني من الارواح فجلس الى جانبي بادب قليلا قليلا فنظرت اليه فرايته قد تغير لونه وضاق نفسه وكان لايقدر يرفع راسه من الثقل الذي نزل عليه وانا انظر اليه واتبسم فلا يقدر ان يتبسم لما هو فيه من الكرب فلما فرغت من الكلام وصدر الوارد خفف عن الشيخ واستراح ورد وجهه اليّ فقبل بين عينيّ فقلت له : ياستاذ من يجالس الموتى انا او انت ؟ قال : لاوالله بل أنا اجالس الموتى والله لو تمادى عليّ الحال فطست : وانصرف وتركني فكان يقول : من اراد ان يعتزل عن الناس فليعتزل مثل فلان : » اه

وأقول الآن ان مثل هذه الحكاية منقول عن الصوفية بكثرة وهو من خوارق العادات المألوفة المعروفة ولكنه ليس خارجا عن السنن الالهية ، ولا خارقا للنواميس الكونية . ولا علاقة له بالامور الدينية . وإنما الروح الانساني مستعد في أصل الفطرة لادراك عالمه ولكنه يشغل عنه بعالم الجسد الذي يكون كل شغله به من أول النشأة وهذا الاستعداد يكون قويا في بعض الناس فاذا اهتدى من يكون قويا فيه الى استعماله يزداد قوة حتى يتمكن من رؤية الارواح المجردة اي التي تفارق الاجساد ويقوى على خطابها وللافرنج في هذه السنين عناية بهذا الامر واشتغال به كبير ، ويروى عنهم في استحضار الارواح ومكالمة الموتى أضعاف ماروى عن الصوفية من الوقائع ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا فيه مبلغ الصوفية فيما اظن ولا يبعد ان يسبقوهم

في يوم من الايام لان جد هؤلاء الافرنج ومثابرتهم على الاعمال التي يهتدون الى طريقها من الغرابة بمكان

هذا مايقال في التأويل لمن صحت عنده الروايات عن الاولين والآخرين . ومن الناس من يقول ان كل مايروى في هذا المقام غير حقيقي وانما هو من ضروب الشعوذة والسيمياء يخيلون فيه للناس مالا حقيقة له في الواقع . وقد ذكر الصوفية ان بعض هذه المشاهد الروحية يكون في عالم الخيال . وبعضها يكون في عالم المثال وقد اطلنا هذا البحث في كتاب (الحكمة الشرعية) فكتبنا فيه ٣٥ صفحة ، ومنه : قال حجة الاسلام الغزالي (رحمه الله تعالى) في كتابه المنقذ من الضلالة في الثناء على الصوفية « حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد » وفي المواهب اللدنية للقسطلاني ان الغزالي قال في تفسير حديث « من رآني في المنام فقد رآني حقاً » وحديث « من رآني في المنام فسيراني في اليقظة » : ليس معنى قوله « فقد رآني » انه رأى جسمي وبدني وإنما المراد انه رأى مثالا صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسي اليه . وكذلك قوله « فسيراني في اليقظة » ليس المراد انه يرى جسمي وبدني (قال) والآلة تارة تكون حقيقية وتارة تكون خيالية والنفس غير المثال المتخيل فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا شخصه بل هو مثاله على التحقيق : فعلم بهذا ان الغزالي يريد برؤية الارواح رؤية مثل متخيلة لها . ولكنه قال في المنقذ بعد ما تقدم : ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق المناطق :

وذكر الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر جماعة كانوا يرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة منهم الشيخ قاسم المغربي . ونقل عن الشيخ قاسم المذكور أنه قال : وأكثر ماتقع رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بالقلب ثم تترقى الى رؤية البصر (قال) وليست رؤية النبي صلى الله عليه وسلم كرؤية بعضنا بعضا وانما هي جمعية خيالية وحالة برزخية وأمر وجداني لايدرك حقيقته الا من به منه باشره : اه ففهم ان الانسان لايزال يفكر في الميت الذي تتوجه اليه نفسه

ويتعمل فى إخطاره على قلبه حتى يتخيل أنه يراه وانه معه لانه يغيب عن عالم الحس ويستغرق فى عالم الخيال

وذكر الشعراني فى ميزانه عن شيخه علي الخواص أن الائمة المجتهدين كانوا يرون النبي صلى الله عليه وسلم يقظة ويسألونه عن الاحكام المشكلة . ولو كانت هذه الرؤية حقيقة مطردة لما اختلفوا اذ لا يمكن ان يجيبهم بأجوبة مختلفة في المسألة الواحدة ولما توقفوا فى بعض المسائل . فان صح قوله فهي الجمعية الخيالية وهى لا تزيد الانسان على ما فى نفسه على انه لم ينقل عن أحد منهم انه ادعى ذلك .

وفى الذهب الابرز (ص ٤٤ و٤٥ من النسخة المطبوعة بمصر سنة ١٢٩٢) ان ابن المبارك سأل الشيخ عبد العزيز الدباغ عن استحضار صورة النبي صلى الله عليه وسلم فى ذهن المؤمن هل هي من عالم الروح أو من عالم المثال أو من عالم الخيال قال : « فاجاب رضي الله عنه بان ذلك الاستحضار من روح الشخص وعقله فمن توجه بفكره اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ووقعت صورته فى ذهنه فان كان ممن يعلم صورته الكريمة لكونه صحابيا أو من العلماء الذين عنوا بالبحث عنها ثم حصلوها فانها تقع فى فكره على ما هي عليه فى الخارج . وان كان من غير هذين فانه يستحضره فى صورة آدمي فى غاية الكمال فى خلقه وخلقه فقد توافق الصورة التي في فكره ما فى الخارج وقد تخالفه والحاضر فى الفكر هو صورة ذاته صلى الله تعالى عليه وسلم لا صورة روحه عليه الصلاة والسلام فان الذى شاهده الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأخبر عنه العلماء هو الذات لا الروح الشريفة ولا يجول الفكر الا فيما يعلمه الشخص ويعرفه . فقولكم : هل هو من عالم الروح ؟ ان اردتم به الاستحضار فهو من عالم الروح اي من روح المتفكر وان أردتم به الحاضر أي فهل الحاضر فى أفكانا روحه صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ فقد سبق أنه ليس إياها . وأما المحادثة والمكالمة اذا حصلت لهذا المتفكر فان كانت ذاته طاهرة ومنجهاً روحه ولم تحجب عنه أسرارها وكانت معه كالخليل مع خليله فالمحادثة معصومة وهي حق وان كانت الذات على العكس فالامر على العكس والله الموفق » اه وماذكره أخيرا من الحكم فى المحادثة والمكالمة فيه غموض ولا أقول هنا كما قلت فى (الحكمة

الشرعية): ان فيه وقفة ظاهرة:

ثم قال ابن المبارك إنه ذكر لشيخه رجلا من الصالحين كان يذكر الله مع جماعة من أصحابه فما كان من أحدهم الا ان تبدل لونه وتغير حاله وبدل جلسته فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال «واعلموا ان فيكم رسول الله» (قال) فقلت للشيخ هل هذه المشاهدة التي وقعت لهذا الرجل مشاهدة فتح أو مشاهدة فكر؟ فقال: مشاهدة فكر لا مشاهدة فتح ومشاهدة الفكر وان كانت دون مشاهدة الفتح الا أنها لا تقع الا لأهل الايمان الخالص والمحبة الصافية والنية الصادقة. وبالجملة فهي لا تقع الا لمن كمل تعلقه بالنبي صلى الله عليه وسلم. وكم واحد تقع له هذه المشاهدة فيظنها مشاهدة فتح وانما هي مشاهدة فكر. وهذا القسم الذي تقع له هذه المشاهدة وهو غير مفتوح عليه اذا قيس مع عامة المؤمنين كانوا بالنسبة اليه كالعدم ويكون إيمانهم بالنسبة اليه كلا شيء والله أعلم:

قال ابن المبارك: ومما يؤيد هذه المشاهدة الفكرية وانها تقع لغير المفتوح عليه كونها تقع لمن كملت محبته في شخص وان كان غير النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد أخبرني بعض الجزارين أنه مات له ولد كان يحبه كثيرا وانه لم يزل شخصه في فكره حتى ان عقله وجوارحه كلها معه فكان هذا دأبه ليلا ونهارا الى ان خرج ذات يوم الى باب الفتوح احد أبواب (فاس) حرسها الله تعالى لشراء الغنم على عادة الجزارين فجال فكره في أمر ولده الميت فبينما هو يجول فكره إذ رآه عيانا وهو قادم اليه حتى وقف الى جنبه. قال فكلمته وقلت له: يا ولدي خذ هذه الشاة لشاة اشتريها حتى أشتري أخرى: وقد حصلت غيبة قليلة عن حسي فلما سمعني من كان قريبا أتكلم مع الولد قالوا: مع من تتكلم أنت؟ فلما كلموني رجعت الى حسي وغاب الولد عن بصري فلا يدري ما حصل في باطني من الوجد عليه الا الله تبارك وتعالى: اهـ

وقلت بعد إيراد هذا في (الحكمة الشرعية): وظاهر ان هذا الرجل قد انطبعت صورة ولده في خياله ولشدة اشتغاله به وضعف شأن المحسوس الذي هو آخذ به بالنسبة اليه غاب عن حسه وتلاشى تحت قوة سلطان خياله فتمثلت له صورة ولده المطبوعة في خياله بشراً سوياً فحدثه وهمه بأنه يراه حقيقة فخاطبه بما خاطبه به حتى اذا

تنبه بتنبيه آخر لم ير شيئاً . وهذه الرؤية من قبيل الأحلام المنامية . وقد رأيت امرأة مخبولة تخاطب الأموات وتخبر عن حالهم عند مايرون فى خيالها : هذا فلان يقول كذا هذا فلان يقول كذا : وكثيراً ماتكون الغيبة عن الحس للعشاق باستحواذ الخيالات والأوهام عليهم حتى ان أحدهم لفرط شغفه واشتغال فكره بمعشوقه يمثله له خياله فيتوهم انه موجود أمامه حقيقة فيقابله بما يليق به من الآداب . ويرفع الى أعتاب جنابه ماشاء من العتاب . وفى ذلك قال قائلهم :

يمثلك الشوق الشديد لناظري فأطرق إجلالا كأنك حاضر

ومنه الحكاية عن عاشقة تقول :

فليس نوما خفض رأسي إنما ٠ أسجد للطيف الذي قد سلما ٠ فانني استزرته توهما
فزارني ورق لي ترحما ٠ لما رأى في الجفن فعل السهد

وقال لي بالله ماأضناكي ٠ قد كل عنك نظر الادراك ٠ نامي بجفني فاقصدي مناكي
كيما تريه أنت أو براكي ٠ فليس لي بغير ذا من جهد

ومثل هذا فى كلامهم كثير وفيه يقال : الجنون فنون . وكل حزب بما لديهم فرحون .

(النتيجة)

ان مانقل عن كثير من عباد المسلمين والنصارى وغيرهم من رؤية الأنبياء والأولياء والرؤساء الروحيين صحيح فان حال الاشخاص فى الرائين والناقلين فى بعض الوقائع ليس فيها شائبة الكذب . ولكن هذا ليس من الخوارق الحقيقية ولا تلك المشاهدات دليل على ان صاحبها على الحق . وإنما هو تأثير الحب والشغف وكثرة الفكر والتخيل فى الشيء مع تأثر الوجدان به يضعف الحواس ٠ ويقوي الوسواس ، فيغيب صاحبه عن حاله . ويحضر مع خياله . ومن الناس من كان يستعين على إثارة رواكد الخيال بما يضعف الحواس والعقل من المخدرات كالحشيشة المعروفة فقد كان أول من استعملها الباطنية والمتصوفة ولذلك كانت تسمى حشيشة الفقراء . كان شيوخهم يشغلون فكر المريد ببعض الاموات المعتقدين أو بالجنة مثلا ويناولونه شيئا من الحشيشة فتخدر حواسه فيتجسم مافي خياله من الصورة التي كان وجهه الشيخ اليها فتمثل له في صورة بديعة . وما كان المريدون يعلمون بأن لما تناولوه من الحشيشة تأثيراً فيما رأوه وانما كانوا

يعتقدون أنه تصرف روح الشيخ فى عوالم الملكوت وإدناء بعض مافيها من عالم الملك

وأنت ترى ان هذا الذي قلناه في تفسير رؤية الارواح ومكالمتها مأخوذ من كلام كبار الصوفية ولم نقتحره اقتحارا . وانى اعترف بان ماقاله الشيخ عبد العزيز الدباغ فيه هو كرامة من كراماته المعنوية فانه كان رجلا أميا وفتح الله عليه بالمعارف العالية وأكرمه بحل كثير من المشكلات الفلسفية كهذه المسألة والمشكلات الدينية أيضا على انني لاسلم بكل ماتقل عنه ولاأقول انه معصوم أو محفوظ من الخطأ . وما قاله فى إيمان من يرى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رؤية فكرية خيالية لاينافي ماقلناه آنفا من كون هذه المشاهدات لاتدل على حقية اعتقاد صاحبها. فصاحب الايمان الصحيح فى الاصل تجعل إيمانه إيمانا وجدانيا فيكون أقوى من إيمان غيره . وكذلك صاحب الاعتقاد الباطل فهي تقوي في نفس صاحبها ماهو فيها حقا كان أو باطلا كما فعلت بايمان الذين تمثلت لهم السيدة مريم عليها السلام وهم يعتقدون انها أم الله ـ تعالى عن ذلك علوا كبيراً ـ فثبت بهذا ان هذا النوع ليس من الخوارق في شيء

ورأيت ان كلام الصوفية الذي حل الاشكال يشير او يصرح بان وراء هذه المشاهدات الخيالية والمكالمات الوهمية شيئاً آخر أعلى منه وهو إدراك الارواح إدرا كا صحيحا والاستفادة منها استفادة حقيقية لم يكن يعلمها المرء من قبل . وهذا شيء لايمكن ان يعرفه الامن ذاقه وهو جائز وان لنا من الثقة بصدق بعض المخبرين به اكثر مما لاهل هذا العصر من الثقة باهل أوربا إذ يصدقونهم بكل شيء غريب يقطعون بثبوته وان لم يعرف دليلهم هؤلاء المصدقون

واذا ثبت هذا النوع لبعض الاولياء والاصفياء لاستعداد فيهم قواه استعماله وسمي كرامة لهم فلا ينبغي ان تعتقد انه جاء مخالفاً للسنن الالهية في الخلق ولا أن تصدق أحدا من الناس بخصوصه يدعيه لانه مما لايمكن إثباته لغير من ذاقه ومن ادعى مالا يمكن إثباته فهو أحمق او مجنون لايبالى به . وهذا الذي قررناه حجاب دون اغترار العامة ببعض الدجالين وهو غرضنا الاول من كل ما كتبناه في الخوارق والكرامات

فى س ٩ ص ١٦٤ « كلام » والصواب « كلام الله » وفي س ٩ ص ١٦٧ (رؤساء) والصواب « عن رؤساء » فليصحح